مقامات الزمخشريّ: رؤية وتأصيل *

د.هارون الربابعة **
د.نبيل حسنين ***
د.زياد أبو لبن ****

* تاريخ التسليم: 24/ 11/ 2014م، تاريخ القبول: 7/ 3/ 2015م.
** أستاذ مساعد/ جامعة البتراء/ عمّان/ الأردن.
*** أستاذ مساعد/ جامعة البتراء/ عمّان/ الأردن.
**** أستاذ مساعد/ جامعة البتراء/ عمّان/ الأردن.

ملخّص:

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا بحثٌ في (مقاماتِ الزمخشريّ) بعنوان: (مقامات الزمخشريّ: الرؤية والتأصيل) ، وقد حاولنا فيه أنْ نعرّفَ بهذه المقامات، ونحلّلَ مقدمتها وخطبتها، ونتحدث عن أثر الاعتزالِ فيها.ثمّ قمنا بتحليلِ طائفةٍ من المقامات، وهي: المراشد، والرضوان، والحذر، والتسليم، والمنذرة.**وكانَ التحليل على النحو الآتي**:

1. تبيُّن مدى ارتباط العنوان بالمضمون.
2. تبيّن براعة الاستهلال فيها.
3. توضيح الترابط بين الاستهلالِ والمتن والخاتمة.
4. دراسة لغة المقامات من حيث:
   - فصاحة الكلمات.
   - بلاغة الجُمل.
5. تبيُّن مدى مناسبةِ اللفظ للمعنى.
6. تبيُّن المضامين التي اشتملتْ عليها المقامات.
7. المحسناتِ البديعيّةِ التي تحفل بها المقامات.

وقد أفدنا في كتابةِ هذا البحث من مقاماتِ الزمخشريّ بشكلٍ رئيس، ثمّ من رسالةِ ماجستير بعنوان (مقامات الزمخشريّ دراسة تحليلية) .وتتسمُ هذه الرسالة بوضوح المنهج، وسعة الاستقراء.هذا، وقد أفدنا أيضاً من مصادر بلاغية مثل: الإيضاح للقزوينيّ، ومصادر نحويّة، مثل: شرح ابن عقيل، وشرح الأشمونيّ، واستأنسنا بها في تحليل بعض المقامات.

هذا، والله المرجوُّ أنْ يكونَ في هذا البحثِ فائدةٌ، فإننا لم نألُ جهداً في البحثِ والتحليل –حسب استطاعتنا– وكما يقال: إن كان خيراً فمن عند الله، وإنْ كانَ غير ذلك فمن عند أنفسنا، ونستغفر الله.

Maqamat Al- Zamakhshari: Analytical Study

Abstract:

This paper discusses Maqamat Al- Zamakhshari from an analytical perspective.The researchers tried to define these Maqamat, analyzed their introductions and the impact of (Al- Eatizal) on them; Maqamat of Almarashid, Alredhwan, Alhathar, ***Altaslim and Almonthera are analyzed and the following are found:***

1. *the title and the text are correlated.*
2. *ingenuity of initiation.*
3. *Clarifying the correlation between the beginning, body and conclusion.*
4. *Studying the language of Al- Maqamat from two sides:*

- *The eloquence of words.*
- *The eloquence of sentences.*

5. *suitability between the word and its meaning.*
6. *contents that are included in Al- Maqamat.*
7. *figurative speeches that are included in Al- Maqamat.*

In writing this paper, we depended mainly on «Maqamat Al- Zamakhshari,» and then on a thesis entitled with «Maqamat Al- Zamakhshari: An Analytical Study) because we think that this thesis has a clear message and approach. In addition to that, we benefited in this analysis from the rhetorical sources such as «Al- Eidhah» by Al- Qaswini and the grammatical sources such as «Sharh Ibn Aqil.»

تعريف موجز بالعلاّمة الرّمخشري صاحب المقامات:

لقد أشبع العلماء ممن حرّروا في السّير والتراجم أبا القاسم الزّمخشريّ دراسة وبحثاً، غير أنّ هذا لا يعفينا من أن نطلّ إطلالة سريعة على جانب من حياة هذا العالم الفذّ.وكما قيل: "ما لا يُدْرَك كلّه، لا يُترك جلُّه".

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمّد بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ، كبير المعتزلة في عصره، ولد في زَمَخْشَر (قرية كبيرة من قرى خوارزم) سنة 467هـ، وتوفّي في جرجانيّة خوارزم سنة 538هـ.من أشهر مؤلّفاته: تفسير (الكشّاف) ، وكتاب: (المفصّل في النّحو) ، ومعجم (أساس البلاغة) .[1]

لقد كان الزّمخشريّ في الصّدارة من علماء عصره، شديد الذّكاء، متوقّد الذّهن، جيّد القريحة، كثير الحفظ، إماماً في أفانينَ كثيرة من المعرفة؛ عالماً متفنّناً في كلّ علم، فقد كان مفسِّراً، وفيلسوفاً متكلّماً، ونحويّاً بارعاً، وأديباً لامعاً، ناظماً وناثراً.وخير شاهد على هذا تصانيفه الكثيرة في العلوم الشّرعيّة كالتّفسير، والحديث، والفقه، والقراءات.وعلوم اللغة كالمعاجم، والادب، والنّحو، والعروض، فضلاً عن علم الكلام والمنطق.وقد أربت مؤلّفاته على الثّلاثين، ترك فيها ثمرات عقله الجَنيَّة، وخلاصة أفكاره النيّره، وكلّها تحمل في طيّاتها علوماً متنوّعة، تدلّ على تنوّع ثقافته.

التّعريف بمقامات الزمخشريّ:

يُعَدُّ فنّ المقامات من أهمّ فنون النّثر العبّاسيّ، وقد كان بديع الزّمان الهمذانيّ (المتوفّى سنة 398هـ) هو أوّل من مهّد الطّريق وعبّده لظهور هذا الفنّ، ثمّ خلفه الحريريّ (المتوفّى سنة 516هـ) وكان أوسع ثقافة، وأحكم صياغة، وأقوى تعبيراً، فوصل بهذا الفنّ إلى الذّروة، إذ لا نجد أحداً ممن جاء بعده استطاع ان يحلّق معه في الأفق الذي صعد إليه. وبذلك ظلّ الحريريّ الأديب الماهر الذي لا يُبارى، ولا يُجارى في هذا الفنّ، وكانت مقاماته مضرب المثل في الفصاحة والبيان.

وقد كان للعلاّمة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ نصيب من هذا الفنّ، إذ أسهم فيه بتأليف مقاماته، وشفعها بشرح مختصر لما غمُض من ألفاظها.وقد أنشأها الزّمحشريّ –كما يصرّح في مقدّمة مقاماته– تذكرةً لنفسه، وردعاً لها عن أنْ تعودَ إلى سالفِ عهدها من الغوايةِ والضلالِ، ويبدأها بخطابِ الذاتِ بقولِهِ: (يا أبا القاسم) ، وهذه

السمةُ الأسلوبيةُ تتكرّرُ في جميعِ المقاماتِ باستثناءِ مقامةٍ واحدةٍ هي مقامةُ التسليم[2]. وتدورُ هذه المقامات حولَ موضوعٍ رئيسٍ وهو الوعظ، وإنْ كانت تشتملُ على مَناحٍ اجتماعيّة وسياسيّة وغيرها.

يختلفُ النسقُ البنيويّ لهذه المقامات عمّا عهدناه لدى بديع الزمان الهمذانيّ، والحريريّ، فهي تكادُ تخلو من النمط القصصيّ إلاّ ما وردَ في مقامةِ (أيام العرب) [3] ، فهي تشيرُ إلى عناوينِ القصص دونَ أنْ تسبر أغوارها، فلا نجدُ فيها شخوصاً تتحرَّك، ولا أحداثاً، ولا زماناً، ولا مكاناً.بمعنى أنّها تخلو من مقومات الفن القصصيّ، ممّا يجعلها تقتربُ من مفهوم (المقام) أكثر من مفهوم المقامة.والمقام: هو أنْ يقومَ الخطيبُ بين يدي الخليفة للوعظِ والتذكير، كما أنها تختلف عن مقامات سابقيه كالحريريّ والهمذانيّ بأنّها كانت تنحو منحى الجدّ في جميعها، فلا نجد في مقاماته هزلاً أبداً؛ ولعلّ السبب يعود إلى جِدّيّة الموضوعات التي طرقها، كما أنّ وعظه كان صادقاً نابعاً من القلب.فجاءت مقاماته رسالة من القلب إلى القلب، والكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإن خرج من اللسان لم يجاوز الآذان.

وتشتركُ مقاماتُ الزمخشريّ مع المقامات البديعيّة في الصنعة اللفظية، ومن أهمّ خصائص هذه الصّنعة ومميزاتها:

1. الالتزام بالسّجع في المقامة كلّها.
2. انتقاء الألفاظ المنمّقة في مستوى الكلمة، والعبارات القوية المتينة في مستوى الجملة.
3. الإكثار من المحسّنات البديعيّة المختلفة، كالجناس والطّباق وغيرهما.
4. الإكثار من الألفاظ الغريبة، والكلمات النّادرة الاستعمال.
5. الاقتباس والتّضمين من القرآن الكريم، والأحاديث النّبويّة الشّريفة، والأمثال العربيّة، والحِكم، والأشعار.

أهداف الزّمخشري من مقاماته:

يهدِفُ الزمخشريُّ من هذه المقامات إلى جُملةٍ من الأغراضِ منها:

1. تذكير نفسه وردعها عن العودة إلى مّا كانت عليه في سالفِ عهدها (كما جاء في الخطبة) .فقد كان يأخذ نفسه بالشدّة حتّى تكون توبته نصوحاً، كما كان يعظها ويذكّرها برحمة **الله** ورضوانه.

2. حضّ القارئ على العمل بما فيها.ولذا نجده في كلّ مقاماته يتّجه بكل ما أوتي من قوة إلى الحضّ على عمل الخير الذي يرضي الله، والابتعاد عن زخارف الدنيا الباطلة، وملذّاتها الزّائلة، التي لا تساوي شيئاً إذا قيست بنعيم الآخرة الذي لا يزول.

3. حضّ القارئ على الانتباهِ على طريقةِ صياغتِها، وأسلوبِ فصاحتها، حتّى يُفيدَ من ذلك في محاكاة ذلك الأسلوب.

4. الإعلان الواضح أمام الأئمة والأمّة، عن اعتزاله سلاطين عصره، وحكّام زمانه، والإقلاع عن مدحهم، والوقوف على أبوابهم لالتماس العطايا والهبات.واستثمار الوقت بما هو خير من هذا من العمل الصّالح، والعلم النّافع؛ لذلك نجده في آخر مقاماته يتّخذ على نفسه عهداً بأن يتفرّغ لتعلّم القرآن الكريم والسنّة النّبويّة المطهّرة، وما انبثق منهما من علوم، وما يدور في فلكهما من معارف.

5. ويفهم من الهدف السّابق أنّ الزّمخشريّ – وهو العَلَم البارز، والطود الشّامخ في العلم والمعرفة– قد أخذ على نفسه عهداً بأن يطلب العلم، وفي هذا رسالة ضمنيّة إلى القارئ بضرورة طلب العلم وتعلّمه، وأن المرء لا يزال عالماً ما طلب العلم، فإن ظنّ أنّه علم فقد جهل.

6. إظهارُ جوانب معرفته الموسوعيّة المتعددة، ويظهرُ هذا في مقاماتِ: النحو [4] ، والعروض [5] ، والقوافي [6] ، والديوان [7] ، وأيام العرب [8] .

7. هداية القارئ إلى سبل الخير والصّلاح؛ لذلك نجد مقاماته متنوّعة بين الحكمة، والوصايا، والأدب، والتّاريخ.

مراحل كتابة المقامات:

يبدو أنّ هذه المقامات مع شرحها للزّمخشريّ قد مرّتْ بثلاثِ مراحل حتّى تمّت وأصبحت خمسين مقامة مشفوعة بشرح موجز يفسّر ما غمض من ألفاظها؛ **الأوليان للمقامات نفسها، والثّالثة لشرحها**:

- المرحلةُ الأولى: عندما سمعَ ذلك الهاتف المناميّ الذي كانَ باعثاً على كتابةِ مقامة (الرضوان) [9] وأتبعها بمقامات قلائل.
- المرحلةُ الثانيةُ: عندما أصيبَ بالمرضةِ الناهكةِ التي أسماها (المنذرة) [10] وكانَ هذا باعثاً على إتمامِ المقامات خمسين مقامة.
- المرحلةُ الثالثة: عندما طلب منه طالبُ علمٍ لبيبٌ مُجدٌّ أنْ يشرح غامض الكلماتِ،

فحقق له طلْبته، فجاءتْ المقاماتُ مشروحةً بشرحِ الزمخشريّ.ولا يزالُ الشرحُ يطبعُ مع المقاماتِ، كما نجدُ في طبعةِ دارِ الكتابِ العلميّةِ في بيروت.

الخطبة والمقدمة:

من العجيب أنْ نجدَ مقامات الزمخشريّ تبدأُ بمقدمة يتبعها خُطبة.وفي حين نجدُ المقدمةَ تصرِّحُ أنّ الباعثَ على الكتابة طلبٌ من أحد طلاب العلم، نجدُ أنّ الخطبةَ تصرِّحُ أنّ الباعث على إنشاء المقاماتِ رؤيا مناميّة، أفزعت أبا القاسم، وجَعلتهُ يتمّ ما سمعه من كلام إلى مقامة كاملة أتبعها ببضعِ مقاماتٍ، ثمّ أصابتهُ المرضةُ الناهكةُ فأتمّها خمسين مقامة.

إنّ نظرةً فاحصةً لمقدمةِ الكتابِ وخُطبتِه تُبيّنُ لنا أنّ الخطبة قد خصّها الزمخشريُّ للحديث عن المقامات نفسها، بينما خصّ المقدمةَ للحديث عن شرحِ المقامات؛ لأنّ منشئ المقاماتِ وشارحَها واحدٌ وهو الزمخشريّ.وما يؤكّدُ أنّ شارحَ المَقاماتِ هو كاتبها ما جاءَ في حاشيةِ الصفحةِ الرابعة والستين، وهو قول الزمخشريّ: «وقد ذكرتُ حقيقته في (الكشافِ عن حقائقِ التنزيل) » [11] وصاحبُ الكشافِ هو الزمخشريّ.

مقدمةُ الكتاب: [12]

يبدأُ الزمخشريّ مقدمة الكتاب بالتصريحِ بذكرِ اسمه، كما صرّحَ في الخطبةِ أيضاً، وقد كانت هذه سمة غالبةً على الكثير من كتبِ التراث، فيبدأُ المصنف كتابهُ بقوله: «قالَ فلانٌ، ويقولُ فلان» [13] ، وهذا ما نجدهُ صريحاً في خطبةِ الزمخشريّ، فبعدَ الحمدِ والصلاةِ على رسولِ **الله**، قالَ: «هذه مقاماتٌ أنشأها الإمامُ فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ» [14] .

ويبيّنُ الزمخشريّ أنّ هذه المقدمةَ قد خصّها لتقديم شرحه للمقاماتِ التي أنشأها أولاً، فالمقدمةُ كما أشرنا سابقاً لشرحِ المقاماتِ لا للمقاماتِ نفسها، يقولُ الزمخشريّ: «فأسعفتك إلى طلبكَ من بيانِ ما أشكَلَ عليها من ألفاظِ النصائحِ ومعانيها» [15] ويظهرُ في النصّ المقتبس أنّ الزمخشريّ عدّ مقاماته نصائح، وهذا يؤكدُ ما ذكرناهُ سابقاً من أنّها تقتربُ من مفهومِ المقام أكثر من مفهومِ المقامةِ.

ويشيرُ في هذه المقدمةِ إلى طبقتينِ اجتماعيتينِ متغايرتين:

- الأولى: تخصّ أهل الفضل والديانة.
- الثانية: تخصّ الذينَ يحسبونَ أنّهم يحسنونَ ولا يحسنونَ، وقد شبههم بالخنازيرِ، فهم لا يعملون بما يعلمون.

ويشيرُ الزمخشريّ في المقدمة إلى عادة دَرَجَ عليها بعضُ المؤلفينَ في كتابة مصنّفاتهم، فلا يرضونَ لمصنَّفهم «إلاّ أنْ يُكْتَبَ بخط رشيق، وبقلم جليل، وفي ورق جياد، وأنْ يُخطّ مضبوطاً بالنقط والشكل» [16] وكأنّهُ يطلبُ – بأسلوب ذكي– من هذا الطالب أنْ يُكْرمَ مقاماته على هذا النحو، زائداً عليه بإثبات اسم المنشئ وتفخيمه، والدعاء له بالرضوان والرحمة جزاء ما أفاده من فوائد، ونصحه من نصائح.

وقد أشار الزمخشريّ إلى أسلوبه في صياغة المقامات، بقوله: «وأنّ تنبِّه من يدرسه على مواقع النكت فيها واللطائف، وما روعيَ في مناظمها من رائع الترتيب، وتفهيمك أنّ كلمات السجع موضوعةٌ على أنْ تكونَ ساكنةَ الأعجاز، موقوفاً عليها» [17].

وتشتملُ المقدمةُ على آراء نقديّة جديرة بالتقدير [18]، خُذ مثلاً قول الزمخشريّ: «لتعلم أنّ ما سماهُ الناسُ البديعَ من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها، والتجنيس، والتسجيع، والترصيع، لا يملُحُ ولا يبرُعُ حتّى يوازي مصنوعُهُ مطبوعَه، وإلاّ فما قلقَ في أماكنه ونبا عن مواقعه فمنبوذ بالعراء، مرفوضٌ عند الخطباء والشّعراء» [19]. فهو يرى أنّ الكلامَ لا يكونُ جميلاً بمجرد اشتماله على المحسنات البديعيّة، بل يشترطُ أنْ لا يسرفَ الكاتبُ فيها، وألاّ يقصدها لذاتها بحيثُ تختفي وراءَ كثافتها معاني الألفاظ ودلالاتها.وقد أفاضَ الزمخشريّ في الحديث عن السجع وأهميته، وطريقة الوقوف عليه، وما يجوزُ فيه من تغيير حتّى يستقيمَ للكاتب ما يريدُهُ من توافق الفواصل في أواخر الجُمل.

ويظهرُ في المقدمة تأثّرُ الزمخشريّ بالقرآن الكريم، كما في قوله في النصّ السابق: «فمنبوذ بالعراء» وهو تأثرٌ بقوله تعالى: ﴿**فنبذناهُ بالعراء وهو سقيمٌ**﴾ [الصافات: 145].

ويستشهدُ الزمخشريّ في المقدمة بما يُروى عن عيسى– عليه السلام– من قوله: «لا تَطرحوا الدُّرّ تحتَ أرجل الخنازير» [20] ، ويظهر في هذا تأثره بالإسرائيليات التي يبرزُ أثرُها في ثقافته.

ويلاحظُ في المقدمة أنّها تحفلُ بالسجع، وتوافق فواصل الجُمل لكننا لا نرى أثراً للصنعة في المقدمة إذا ما قسناها بمقامات الكتاب وخُطبته التي تظهرُ فيها الصنعةُ بشكل جليّ، وتحفلُ بالمحسنات البديعيّة المختلفة.

ويختمُ الزمخشريّ مقدمة كتابه بالدعاء لطالب العلم الذي نَفَذَ الزمخشريّ من خلاله إلى مخاطبة القارئ.

خُطبةُ الكتابِ: [21]

خصّ الزمخشريّ خُطبةَ كتابِه للحديثِ عن المقاماتِ أنفسِها – كما أسلفنا– وقد استهلها بالبسملةِ، وحمد **الله** تعالى، والصلاة على نبيِّه محمد– صلى **الله** عليه وسلم– ثمّ صرَّحَ باسمِه، وذكَر سبب إنشائه هذه المقامات – وقد تقدّم– وسنة إتمامها وهي سنة 512 هـ.

ويظهرُ في هذه الخطبة النَّمط القصصيّ بشكلٍ جليّ، فهو يقصُّ سبب إنشاءِ المقاماتِ، وما كان عليه في سالفِ عهدِه، وكيفَ رجَعَ إلى رشدِه، وذلكَ الهاتف المناميّ الذي صوّت به: «يا أبا القاسم، أجلٌ مكتوب، وأملٌ مكذوبٌ» [22] فالراوي هو الزمخشريّ الذي يمثلُ أيضاً دورَ البطل، ولا تُذْكَر أحداثُ القصّة بتسلسل، بل تبدأُ بذكرِ الهاتفِ المناميِّ واستيقاظ الزمخشريّ، وكتابته بضعَ مقامات، ثمّ إصابته بالمرضَة الناهكة، وإقسامه إنْ شفاه **الله** ألاّ يعودُ إلى سالفِ عهدِه من مدحٍ للسلاطين والحكّام لالتماس العطايا والهبات.وفي هذه الإشارة دليل على تلكَ الأَحداث التي سبقتْ الرؤيا المناميّة، والسيرة التي كانَ عليها الزمخشريّ في بلاط السلطان.وبعدَ أن يَشفى الزمخشريّ من هذه المرضة ينفّذ ما أخذهُ على نفسِه، ويتمُّ مقاماتِه خمسين.

ويضمّن الزمخشريّ خُطبتَه ذكرَ منهجِه في المقامات الذي يقومُ على:

1. انتقاء الألفاظ.
2. الاهتمام بالسجعِ.
3. جودة السبك.
4. إيداعها المعاني التي تزيد المستبْصِر في دين **الله** استبصاراً [23].

وتحملُ الخُطبةُ في طياتها أبعاداً دينيّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، سوف يأتي الحديث عنها في مكانها في هذه الأوراق.

وتُبرزُ الخُطبة بعضَ العلوم التي مهَرَ فيها الزمخشريّ: القراءات، والحديث، وأبواب الشرع.ويشيرُ الزمخشريّ في إحدَى جُملِ خُطبِه إلى ما يُمكنُ أنْ يفهم منه أنّه قصد إلى الإيجاز والاختصار في مقاماته بقوله: «والتّرحم على مُقْتَضِبِها» [24]، فعَدَّ نفسه مقتضِباً، واقتضابُ الكلامِ: «اختصارُهُ وارتجالُهُ» [25].

وختمَ الزمخشريّ خطبته بالدعاءِ لنفسه بأنْ يُلقيَ **الله** لمقاماتِه قبولاً في نفوسِ العباد، وأن يستنطق بها ألسنة الصالحين بالدعوة الطيبة [26].

الراوي والبطل في مقامات الزمخشريّ:

إنّ الراوي في هذه المقامات هو جارُ **الله** أبو القاسم الزمخشريّ، لكنّ الدقة العلميّة تقضي أنْ نُقرَّ بأنّ أوّلَ سارد في هذه المقامات وراو لها هو ذلك الهاتف المناميّ الذي وضعَ اللبنات الأولى في المقامات المتمثلة بقوله: «يا أبا القاسم، أجلٌ مكتوب وأمل مكذوب» (27) ، وقد كانت هذه الكلماتُ الباعثَ على إنشاء المقامات، وقد سار الزمخشريّ على سَنَنها، والتزمَ بتلكَ اللازمة الأسلوبية الندائيّة (يا أبا القاسم) في جميع مقاماته إلاّ مقامة (التسليم) (28) ، وبعد هذه اللبنات تسلّم الزمخشريّ زِمام السرد إلى نهاية المقامات.

أما البطل في هذه المقامات فهو الزمخشريّ، وإنْ كنّا نميل إلى استبدال كلمة (المُتَلَقّي) بكلمة البطل؛ لأنّ هذه المقامات لا تقوم على الفن القصصيّ.ولكنّ الزمخشريّ استطاعَ أنْ ينفذ من خطاب الذات إلى خطابِ الجمهور؛ ففي حين صرّحَ في خطبة الكتابِ أنّهُ أنشأ مقاماته حتى تكونَ رادعاً لنفسه عن العودةِ إلى ديدنها الأوّل من الغفلةِ واللجاج في الباطل، نجدهُ في المقدمةِ يطوّرُ هذا الهدف ويقدّمُها إلى طلاب العلم، ومن جملتهم ذلك الطالب الذي طلب إليه أنْ يفسر غامضها، ويوصي ذلك الطالب ألاّ يمكّن من هذه المقامات إلا مَن هو أهلٌ لذلك.

لقد بدأتْ جميعُ المقاماتِ بخطابِ الذاتِ باستثناء مقامة (التسليم) (29) ؛ لأنّها تتحدثُ عن أحوالِ الدّنيا في مصائبها وشدائدها، ولكنْ لماذا استخدمَ الزمخشريّ الكنية (أبا القاسم) في خطابِهِ؟ **يعودُ ذلك إلى سببين**:

- أولهما: أنّ الهاتفَ المناميّ ناداهُ بالكُنية.
- والآخر: أنّ الكُنيةَ تدل على توقيرِ الشخصِ وإجلاله، فكأنّ الزمخشريّ أرادَ أنْ يذكّر نفسهُ بالسنِّ التي هو فيها من الوقارِ والهيبة، حتّى تكونَ رادعاً له عن الوقوع في المعاصي واتباع الأهواء والشهواتِ.وسنّ الزمخشري في ذلك الوقت قد تجاوزت به حدّ الأربعين– لأنّ ولادتهَ كانت سنة 467هـ، وإتمام مقاماته كان سنة 512هـ– ، وسنّ الأربعين هي سنّ بلوغ الأشدّ.يقول تعالى: ﴿**حَتّى إذا بَلَغَ أَشُدّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعينَ سَنَةً قالَ رَبّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الّتي أَنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلى وَالِدَيّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لي في ذُرّيّتي إنّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنّي مِنَ الْمُسْلِمينَ**﴾ [سورة الأحقاف: الآية 15]

وقد عُهِدَ عن العربِ استخدامهم الكُنية للتكريم، كما ورد في أحدِ شواهدِ الأشمونيّ قول الشاعر (30) :

أكْنيهِ حينَ أناديهِ لأكرمهُ ولا أُلَقّبُهُ والسَّوأةَ اللقبا

وقد استتبعَ هذه اللازمة الأسلوبيّة (أبا القاسم) شيوع أسلوب الطلب المتمثل في الأمر، والنهي.ولذلك خلَتْ مقامةُ (التسليم) من هذا الأسلوب؛ لأنّها خلتْ بدءاً من تلكَ اللازمة، وقد عَدَلَ في مقامة (التسليم) عن ضمير المخاطبِ إلى ضميرِ الغائبِ؛ لأنّهُ كانَ يتحدث عن حال المؤمن في سرّائه وضرّائه.

ويقودنا هذا الأمر وهو شيوعُ أسلوبِ الطلبِ وضمائر الخطابِ في المقاماتِ– بشكلٍ عام – إلى الإشارةِ إلى خلوِّ خطبةِ الكتابِ من ضمائر الخطابِ التي عدَلَ عنها الزمخشريّ إلى ضمائر الغائب، فتحدث عن نفسه بضميرِ الغائب، وكأنّهُ أَرادَ أنْ يشعرنا أنّ أبا القاسم الذي كانَ يجري في أذيال السلطانَ شخص آخر غير أبي القاسم الزمخشريّ التائب؛ لذلك استخدمَ ضمير الغائب وكأنّهُ أرادَ أنْ يتبرّأ من ماضيه.وتظهرُ نقطة التحول في مسيرةِ الزمخشريّ عندما تصيبُهُ المرضةُ الناهكةُ، فهذه المرضةُ كانت الحدَّ الفاصل بين سيرتِهِ الأولى، سيرةِ الغواية والضلال، وسيرته الأخرى، سيرة الهدى والاستقامة.

اعتزال الزمخشري في مقاماتِه:

ذكر أحدُ الباحثينَ أنّ أثر الاعتزالِ واضحٌ جليّ في مقاماتِ الزمخشريّ، ولم يكتفِ بهذا بل تعدّاهُ إلى التصريح بأنّ الزمخشريّ كانَ يدعو إلى الاعتزالِ، فقال: «ومن يتمعَّنْ مقاماتِ الزمخشريّ جيّداً لا ينتَابُهُ [31] أدنى شكّ في أنّها حَوَت جميع أصول المعتزلة» [32] وقال في موضعٍ آخر: «وبهذا يتبيّنُ أنّ هذا الأثر –الاعتزال– جاء وجوده قويًّا واضحاً في مقاماتِ الزمخشري لدرجةِ القول: إنّهُ جاء كذلك لإحياءِ آراءِ وأفكار المعتزلة في ثوبٍ أدبيّ جديد» [33].

ونرى أنّ الباحث أصابَ في النتيجةِ لكنّهُ أخطأ في الاستدلالِ، فالزمخشريّ –بلا شك مُعتزليّ– ولكنْ إذا أردنا أنْ نكونَ منصفينَ فلا يجوزُ أنْ نُحمّلَ النصوص أكثر مما تحتملُ فنحكم عليه بالاعتزال، ثمّ نبالغ في الأمر فندّعي أنَّه لم يكتفِ بالاعتزال، بل تعدّاه إلى الدّعوة إليه؛ فالكشاف – مثلاً– يحفلُ بحشْدٍ من الآراءِ الاعتزاليّة المبثوثة في تضاعيفِه، الأمر الذي دعا ابن المنير إلى أنْ يَرُدَّ عليه في كتابِه: (الانتصاف من الكشّاف) المطبوع في حاشيةِ (الكشّاف) .أمّا المقامات فلا نرى أنّ أثر الاعتزالِ جاءَ قويًّا واضحاً فيها، وسوف نوردُ أدلةِ الباحثِ، ثمّ نردّ عليها بما نراه صواباً.

لقد استدلَ الباحثُ بجملةِ أدلةٍ نلخّصها في نقطتين [34] :

1. ما ورد في المقاماتِ من إشارات إلى أصولِ المعتزلة، مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مقامة (المراشد) [35] ، والتوحيد في مقامةِ (التوحيد) [36] ، والوعد والوعيد

في مقامةِ (التوقي) [37].

2. ما ورد في مقامةِ (التصبُّر) وهو قول الزمخشريّ: «واحتفظ بما ألقي إليكَ من باب الرياضة من جوهرة ابن عُبيد؛ فإنّه خيرٌ لك من جمهرة ابن دُريد» [38]، ولعلّ هذا أصرحُ الأدلةِ وأقواها؛ لأنّ ابن عبيد مُعتزليّ، وهو عمرو بن عبيد من شيوخِ المُعتزلةِ.[39]

أما الدليل الأول فلا أرى مسوّغاً للاحتجاج به؛ لأنّ ما ذكره الباحث أمرٌ تشتركُ فيه الفرقُ الإسلاميّة جميعها من الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر، والتوحيد، والوعد والوعيد.وهو بالتالي لا يشكِّلُ خصيصةً اعتزاليّة، ولا نستطيعُ أنْ نجزمَ بهذا إلاّ إذا وجدنا في المقاماتِ من الأصولِ الاعتزالية ما يخالفُ ما عليه أهل السنة والجماعة، مثل: المنزلة بين المنزلتين، وتخليد أصحابِ الكبائر في النارِ، وإنكار صفات **الله**– تعالى عن ذلك علواً كبيراً– مثل السمع، والبصر، والكلام، وإنكارُ رؤية **الله** يوم القيامة، وإنكار شفاعة النبيّ المصطفى – صلّى **الله** عليه وسلّم– يوم القيامة.

أمّا الدليلُ الثاني فقد وضّح الزمخشريّ نفسُهُ في الشرحِ ما قصده بـ (جوهرة ابن عبيد)، فهي حكمة لابن عبيد يقول فيها: «لقد رُضْتُ نفسي رياضَةً لو أردتُها على تركِ الماءِ لتركتْه» [40]. وظاهرٌ أنّ هذه الكلمة تدعو إلى مُجاهدةِ النفسِ، وهو خُلُقٌ إسلاميّ رفيع لا يختصّ به مذهبٌ دونَ مذهب، يقول تعالى: «**وأمّا من خافَ مقامَ ربّه ونهى النَّفسَ عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى**» [النّازعات: 40 – 41].

ونكرِّر أنّنا لا نُنْكرُ أنَّ الزمخشريّ معتزليّ؛ بل نُنْكرُ الاستدلالَ بنصوصٍ من المقاماتِ لا تدلُّ على هذا الأمر صراحةً، ونحمّلها أكثر مما تحتمل.

تحليلُ طائفةٍ من مقاماتِ الزمخشريّ:

قمنا باختيار المقاماتِ الآتية لتكونَ موضوعاً للتحليل، وهي:

1. مقامة المراشد [41].
2. مقامة الرضوان [42].
3. مقامة الحذر [43].
4. مقامة التسليم [44].
5. مقامة المنذرة [45].

وسبب اختيار هذه المقامات بالتحديد أنَّ مقامة (المراشد) [46] أولى مقامات الكتاب، ومعروفٌ أنّ الشيءَ يُقدَّم لأهميتِه، فكأنَّ الزمخشريّ رأى فيها من جودةِ السبكِ، وحسنِ

المعنى، وجمال التصوير ما يؤهلها إلى احتلال مكان الصَّدر في مقاماته فابتدأ بها، مع أنّ مقامةَ (الرضوان) تسبقها زمناً؛ لأنّها أولى مقاماتِ الزمخشريّ إنشاءً كما أشار في الخُطبة.

أما مقامةُ (الرضوان) [47] فقد كان مطلعها قد أُرِيَهُ الزمخشريُّ في إحدى إغفاءاتِ الفجرِ، وكانَ هذا المطلع هو الباعثَ على إتمامها مقامة كاملة، أتبعها فيما بعدُ ببضع مقاماتٍ، واستمر الأمرُ حتى انتهت إلى خمسين مقامة، كما أشار في الخُطبة.

أما مقامة (الحذر) [48] فلما تتميّزُ به من بروزِ المنهجِ العقليّ في المعالجةِ والتحليل، ومن ثَمّ الإقناع والتعليل، إضافةً إلى روعة التصويرِ فيها، وترابطها العضويّ والموضوعيّ المتين، واستطاعَ الزمخشريّ ببراعته أنْ يجعلنا نُحسُ بما يقول، فالزمخشريّ يطلُبُ من نفسه أنْ يتخيل أن جَمْرةً علقت ببعضِ أطرافه، أو أنّ قطرة ماءٍ مغليّ أصابتهُ، ففي تلكَ اللحظة ينشغلُ عن كلِّ ملاذِّ الحياة، ولا يسعى إلاَّ إلى إيجادِ حلّ يخلّصهُ مما هو فيه.ويخلصُ من هذا المثلِ إلى الاستدلالِ على حماقة الإنسانِ الذي يؤمنُ بالجنةِ والنارِ، وينشغلُ عن النارِ الكُبرى بعَرَضٍ من الدنيا زائلٍ.ويقارنُ بين عذابِ جهنّمَ وألم الجمرةِ من حيثُ الشدّة، والألَم، ومدة الإيلامِ.

أمّا مقامةُ (التسليم) [49] فهي تختلفُ عن جميعِ مقاماتِ الكتابِ في أنّها تخلو من اللازمةِ الأسلوبيةِ (يا أبا القاسم) ولعلَّ السبب في هذا أنَّ المقامةَ السابقةَ عليها (الاعتبار) تتحدثُ عن الدنيا وزوالها وتقلّبها بأهلها، وتأتي بدايةُ مقامةِ (التسليم) بالموضوعِ نفسه، فكأنّها جاءت تابعةً لتلكَ المقامة، ولو جرّبتَ أنْ تقرأَ المقامتينِ على أنّهما مقامةَ واحدة لتأتّى لك ذلك – والله أعلم بالصواب–

أمّا المقامةُ الأخيرةُ مقامةُ (المنذرة) [50] فقد أشار إليها الزمخشريّ في خطبة الكتاب، وأشار فيها إلى تلكِ المرضَةِ التي كانت نقطة التحول في مسيرةِ حياتِهِ، ويَبْرُزُ في هذه المقامة العنصر القصصيّ بشكلٍ جليّ واضحٍ.

علاقة العناوين بالمضمون:

في مقامة (المراشد) [51] – والمراشد جمع مَرْشَد بمعنى الرشد– يحضّ الزمخشريّ نفسه على فعلِ الخيرِ، والاقتداء بفاعليه، ونبذ الشر، والحذر ممن يفعله ويراعيه، وقد ورد لفظ (المراشد) صراحة في قولِ الزمخشريّ: "وناغها بالتذكرة الهادية إلى المراشد" [52]، من هذا يتبيّن أنّ الصلة وثيقةٌ بين العُنوان والمضمون، لا من حيثُ ذكرُ العنوان صراحةً في النصّ فحسب، بل بما اشتملت عليه المقامةُ من معانٍ كلّها تصبّ في باب الرّشدِ.

أمّا مقامةُ (الرضوان) [53] فقد صرّح الزمخشريّ باسمها في قوله: "ومشقة ساعة

يتلوها الرضوان وغبطةُ الأبد" [54]، والمقامةُ بجملتها تدعو إلى فعلِ الخير وتركِ الشرّ حتّى يفوزَ الإنسانُ بالرضوان.

أمّا مقامةُ (الحذر) [55] فهي وإنْ لم يصرّح فيها بـ (الحذر) فقد جاءت بجملتها مُحَذِّرةً من عذابِ جهنم بما فيها من صور مخيفة، واستدلال عقلانيّ منطقيّ مُقنِع.

أمّا مقامةُ (التسليم) [56] فقد جاء التّصريحُ فيها بأحد مشتقّات المصدر الصَّريح (التَّسليم) وهو اسم الفاعل (مسلِّم) في قولِ الزمخشريّ: "لأنّهُ مسلِّم لِمُجتَلَبِ القضا" [87] وجاءت المقامةُ حاضّة على الرضا بقضاء الله والتسليم له.

أمّا مقامة (المنذرة) [58] فهو يتحدث فيها عن المرْضة النّاهكة التي أيقظته من غفلته، وكانت سبباً لإعلانِ توبته، وقد سمّى هذه المرضة (المنذرة) لأنّها كانت نذير الموتِ في وقتها، وقد أشار إلى هذه التسميةِ في خطبة الكتاب، فقال: "فلمّا أصيب...بالمرضة الناهكة التي سماها المنذرة" [59] وقد أشار الزمخشريّ إلى هذه المرضةِ في مقامة (المنذرة) بقوله: "ومسَّك بضُرٍّ أنْ عَرَّى عظامَك وأنْحَفَكَ" [60].

وخلاصةُ القولِ أنّ المقامات ترتبطُ بمضمونِها سواء من حيثُ التصريح بالعُنوان في بعضها، أم بما تشتملُ عليه من معانٍ تصبّ في المعنى الذي يشيرُ إليه العُنوان.

براعةُ الاستهلال:

لا ريبَ أنّ الفصحاءَ يهتمونَ بالتأنّق في اختيار ألفاظهم وصَوْغِ تراكيبهم، وسبكِ جُمَلِهم، خاصّةً في مطالع كلامهم؛ لأنّها أوّلُ ما يصافحُ الأسماعَ، فإن أنِسَتْ به الآذانُ طمعت في الاستماعِ إلى ما يليه، وإنْ نَفَرَتْ منه صَمَّتْ عمّا يليه.وفيما يأتي بيان توافق هذا الأمر في المقامات المختارة محل البحث.

أمّا مقامةُ (المراشد) [61] فقد استهلَّها الزمخشريّ بذكرِ مَثَل جميلٍ للخير والشرّ، فضرب مثلاً للخيرِ تفاحَ لبنان الموصوف بحسنِ الطعم والرائحة، كيفما قلبته دعاكَ إلى نفسه، وضرب مثلاً للشرّ حَسَكَ السَّعْدان أنّى وجَّهْتَه نهاكَ عن لمسه [62].

أمّا مقامةُ (الرضوان) [63] فقد استهلَّها بما أُريَهُ في إحدى إغفاءات الفجرِ، وهو: "يا أبا القاسم، أجل مكتوب، وأمل مكذوب" [64].

واستهلَّ مقامة (التسليم) [65] بمطلعٍ يبرز فيه عنصر التشويق إلى الاستماعِ إلى ما يليه، وهو قوله: "جديدان يبلى بتناسخها كل جديد" [66].

وبدأ مقامة (الحذر) [67] بتمهيد عقليّ توسّل به للوصولِ إلى مطلوبِه، وهو الحذر من نار جهنَّمَ.

أمّا مقامة (المنذرة) فلا نجد فيها تلك البراعة التي رأيناها في المقامات السّابقة؛ فقد بدأها بقوله: "فَيْئَتُك إلى الله من صُنْعِه وفضله الغامر" [68] فهي تصلح أنْ تكون في وسط المقامة لا في أولها.

ومع هذا، فإنّ من الإنصاف أنْ نقول: إنّ الزمخشريّ لم يقتصر في جودة ألفاظه والتأنُّق فيها على حدود المطلع، بل تعدّاهُ إلى جميعِ أجزاءِ المقامةِ من أولها إلى آخرها.

الترابط بين الاستهلالِ والمتنِ والخاتمةِ:

في كُلِّ مقامة من المقاماتِ سالفةِ الذكر نجد أنْ المقامة جاءت على شكل حلقات، ترتبط فيها كُلُّ حلْقة بأختها، بحيث تشكل في مجموعها سلسلة مترابطة، وكلاًّ متكاملاً، تتجلى فيه الوَحدة العضوية في أبهجِ صورة، وتشيع في أرجائه وحدةُ الموضوع في أجلى معنى.

فمقامة (المراشد) [69]– مثلاً– يستهلّها الزَّمخشريُّ بذلك المثل سالف الذكر، حين يذكر أنَّ مثل الخير والشر كمثل تفاح لبنان وحسك السّعدان، ثمّ تأتي المقامة داعية إلى فعلِ الخير وترك الشرّ، ومحاسبةِ النفسِ حتى تستقيم على طاعةِ الله، ومصاحبة المتقين، ومخالفةِ الضالّين المُضلّين، والحذرِ من شرورهم، ويختم مقامته بمدحِ المتقين، والإشادةِ بمآثرهم، وحضِّ النفسِ على التأسي بهم، والالتحاق بقوافلهم.

وكذلك الحالُ في المقامات المتبقية، فقد استهلّ مقامة (الرضوان) [70] بذكر أنْ خير الأعمالِ قليل، وشرها كثير، وأنّ مرارة المعصية أشدُّ من لذتها، ولذةَ الطاعة ألذُّ من مشقَّتها، ثمّ يوبّخُ نفسه على إصرارها على المعصية، وختمَ المقامةَ بالتنويهِ بفضلِ العقلِ.

وبدأت مقامة (التسليم) [71] بذكر تعاقب الليلِ والنّهارِ، وما تحملُهُ الحياةُ من سعادة وشقاء، وجاء المتنُ ليبيّنَ موقفَ المؤمن من المصيبة، ويقارنه بموقف الفاسقِ الذي يفوّتُ على نفسه نوالَ أجر الصبرِ، فيجعل المصيبة مصيبتين، ويختم المقامة بطائفةٍ من الأشعارِ التي تُبيّنُ عِظمَ ثوابِ الصبرِ على المصيبة.

أمّا مقامةُ (المنذرة) [72] فاستهلها بما انتهت إليه حالُهُ من البُرءِ والشفاء، وتذكُّرِ فضلِ الله عليه، ثُمَّ أخذ يسترجعُ ما كانَ عليه من الضّلالِ، وكيفَ أصابهُ المرض، وجعلهُ يعلنُ توبته، وينتهي عمّا كان عليه، فكانتْ النقمةُ نعمةً، والمحنةُ منحةً.وختمَ المقامةَ بطائفةٍ من الأشعارِ عن نعمةِ المصائبِ والأدواء، وكما قيل: "رُبَّ ضارةٍ نافعةٌ" [73].

أمّا مقامةُ (الحذر) [74] التي ذهب فيها إلى الاستدلال على العذاب الأخرويّ الأعتى

والأشدّ بضرب المثل الحسيّ من العذاب الدّنيويّ الأدنى.

وبالجملة فإن هذه اللحمة في النّسيجين التّركيبيّ والدّلالي، تؤكّدُ ما قلناهُ سابقاً من الترابط العضويّ والموضوعيّ في كلِّ مقامةٍ من المقامات المختارة.

لغةُ المقامات (فصاحةُ الكلمات وبلاغة الجُمل) :

ذكر الخطيبُ القزوينيُّ في الإيضاح أنّ الفصاحةَ خاصةً صفةٌ للمفرد، فيقالُ (كلمةٌ فصيحةٌ)، ولا يُقالُ (كلمةٌ بليغة)، ووضّحَ شروط فصاحة المفرد، وبلاغة الجملة بقوله: "أمّا فصاحةُ المفرد فهي خلوصه من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللغويّ"[75]. «أمّا فصاحةُ الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الحروف والتعقيد، مع فصاحتها» [76]، "وقيل: فصاحةُ الكلام هي خلوصه مما ذُكِر، ومن كثرة التَّكرار، وتتابُع الإضافات" [77].

ولو طبقنا المقاييس السالفة الذكر لتبيّنَ لنا ما يأتي:

♦ **أولاً- من حيثُ فصاحةُ الألفاظ:**

ألفاظُ المقامات فصيحةٌ، ويؤخذُ عليه بضعةُ مآخذ، مثل قوله: «فعليكَ بالخير إنْ أردتَ الرُّفولَ في مطارف العزِّ الأقعَس» [78].فوصفَ العزّ بالأقعس؛ والقَعَسُ [79] صفة للمتكبر لا تناسبُ مقامة (المراشد) ومقامها.وكذلك قوله في خطبة الكتاب: "وإلقاء الشراشر على ما يقتضيه ما أبرمه من الميثاق" [80].والشراشرُ، هي: ما تفرَّق وانتشر من الهمّ [81]، وفي هذه الكلمة صعوبةٌ في النطق، وثقلٌ على السّمع، وهي شبيهةٌ بكلمة (مستشزرات) التي أخذت على امرئ القيس في قوله: "غدائره مستشزرات إلى العُلا" [82].وكذلك الحالُ في قوله: «فما عُذرك في أنْ ترقل كُلّ هذا الإرقال»[83]، وترقل بمعنى تسرع.وقوله: «ويقتال تصور تلك الأحوال»[84].ويقتالُ بمعنى: يحتكم على الآخرين، والذي منعه من استخدام يحتكم ورودها في الجملة السابقة للجملة المستشهد بها، وهي قوله: «فإنَّ أدنى ما يحتكمُ عليه تبصُّر تلك الحال»[85].

♦ **ثانياً- من حيث بلاغة الجمل:**

إنّ الجمل بلا شك، جيدةُ السَّبك، تساوي الجملة أُختَها في الطول أو القصر، إلا ما نَدَر، وقد يعدل في بعض جمله عن أسلوب إلى آخر تأسّياً بأسلوب القرآن الكريم في بعض الآيات، كقوله: ﴿**وخالفْ عن بنيات طُرُق العادين**﴾ [86] فعدّى خالف باللام، تأسيًّا بقوله: ﴿**فليحذر الذينَ يخالفون عن أمره**﴾ [سورة النور، الآية: 63] وكذلك قوله: ﴿**ودعاكَ**

داعي الإسراف فاستجبْتَه﴾ [87]، فقد عدّى الفعلَ استجابَ إلى مفعوله مباشرةً، كقوله تعالى: ﴿ويستجيبُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ [الشورى: 26]، مع جواز تعديه باللام، كقوله تعالى: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا مردّ له من الله﴾ [الشورى: 47].

لكنّنا مع هذا نجدُهُ في بعض الأحيان يعدل عن الأفصح إلى الفصيح، كقوله في خاتمة مقامة المراشد: ﴿فعسيتَ بفضل الله تنجو﴾ [88] والأفصحُ في عسى اقتران خبرها بـ "أنْ" كقوله تعالى: ﴿عسى ربُّكم أنْ يرحَمَكُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية8] يقولُ ابن مالك[89]:

وكونُهُ بدون (أنْ) بعد (عسى) نزرٌ و (كاد) الأمرُ فيه عُكِسا

يقولُ ابن عقيل: "ومذهبُ جمهور البصريين أنّهُ لا يتجرّدُ ضميرها من (أنَّ) إلا في الشعر، ولم يردْ في القرآن إلا مقترناً بـ (أَنْ) " [90]

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وهبْ أنّ أحداً من الملائكة والثقلين لا يراكَ﴾[91]، يقولُ (محمد محيي الدين عبد الحميد) : «واعلم أيضاً أنّ الغالبَ على (هَبْ) أنّ يتعدّى إلى مفعولين صريحين، كما في البيت الشاهد، وقد يدخُلُ على (أنّ) المؤكّدة ومعموليها، فزعَمَ ابن سيدةَ والجرميّ أنّهُ لحنٌ، وقال الأثباتُ من العلماء المحققين: ليس لحناً؛ لأنه واقعٌ في فصيح العربيّة.وقد رُويَ من حديث عمر: «هبْ أنَّ أباناً كان حماراً، وهو مع فصاحته قليل» [92]، فالأسلمُ إذن أنْ يقولَ: «هبْ أحداً...« حتّى يخرجَ من الخلافَ.

أمّا قولُ الزَّمخشري في مقامة التسليم: «ذاكَ لأنّهُ مسلّم لمجتلبِ القضا، عالمٌ أن محلَّ ذلك إلى انْقضا»، يقصدُ (القضاء) و (انقضاء) فقصر الممدود، فهذا جائزٌ وليس بخطأ، وإنْ كانَ الأصلُ المدّ؛ يقولُ الغلاييني: «يجوزُ قصر الممدود، فيقالُ في دعاء: دعا، وفي صفراء: صفرا، ويقبح مدّ المقصور، فيقبحُ أنْ يقال في عصا: عصاء، وفي غنى، غناء» [93].إذنْ فليس في قصر الممدود خروجاً على القياس، بل هو موافق له، خلافاً لما يراه بعض الباحثين [94].

♦ **ثالثاً- مناسبة اللفظ للمعنى:**

ذكر الزمخشريّ في خطبة كتابه أنّه راعى المناسبة بين اللفظ والمعنى، وذكر في مقدمة الكتاب ضرورة موافقة مطبوع الكلام لمصنوعه حتّى يكونَ بليغاً، وسأشيرُ في هذه السطور إلى أمثلة قليلة تدللُ على هذا؛ فقد قالَ في مقامة الرضوان: «وعمل خيره يقطر، وشره يسيلُ» [95]، فعبّر عن الخير بـ (يقطر) لقلته، وعن الشر بـ (يسيل) لكثرته.وكذلك قوله: «وخالص المتقين» [96]، ولم يقل (خالط) لأنّ المخالطةَ تكونُ بالأبدان، أمّا المخالصةُ فتزيدُ

على المخالطةِ بطهارةِ القلبِ وصدقِ اللسان.وقوله: "وامشِ في جادةِ الهادين الدّالين، وخالف عن بنيّاتِ طرق العادين الضالين" [97]؛ فطريق الهادين (جادَّة) ؛ لأنّ طريق الحقّ واحدة لا تتعدد.أمّا العادون فلهم (بُنَيّاتُ طرق) ؛ لأنّ طرق الضلال متعددة ومتشعبة.ولو وَزَنّا بعض الألفاظ التي ينتقيها الزمخشريّ بميزان الجمالِ التصويريّ، والجرْس الموسيقيّ لوجدنا لها وزناً كبيراً، كقولِه في مجاهدةِ النفس: «ناغِها» [98] والمناغاةُ تُستخدمُ للطفلِ، فانظر كيفَ اختار هذه الصورةَ ليدل على ضرورةِ أخذِ النفسِ باللينِ، حتّى تتعِظ وتلين.

المُحسناتُ البديعيّة في مقامات الزّمخشريّ:

أشارَ الزمخشريُّ في مقدمةِ كتابِه وخُطبتِه إلى اهتمامِه بالسجعِ والمحسِّنات الأخرى، بحيث لا تطغى على المعنى، بل يوافقُ المصنوعُ المطبوع، وأمثلة هذا المحسّنات ظاهرة في المقامات كلّها، **ومن هذه الأمثلة التي تبدّت في المقامات**:

1. السجْع: وهو "توافق الفاصلتين في الحروفِ الأخيرة من النثرِ" [99].

2. لزوم ما لا يلزم: وهو "أنْ يجيء قبلَ حرفِ الرويّ أو ما في معناه بما ليس بملازمه في التقفيةِ، ويُلْتَزَمُ في بيتين أو أكثر من الشعر، أو في فاصلتين أو أكثر من النثر" [100]. فلزوم ما لا يلزم ليس خاصّاً بالشّعر، بل هو عامّ في الشعر والنّثر.

3. الجناس: ويظهرُ في المقامات الجناسُ الناقص بخلافِ التام؛ فإنّه لا يكادُ يذكرُ، وقد نصّ علماءُ البلاغةِ على أنّ الجناسَ التامَ لا يكونُ له وجودٌ في كلامِ الفصحاءِ إلا إذا جاء عفوَ الخاطِر، أو دونَ أنْ يؤثر في تغيير المعنى.ومن أمثلةِ الجناسِ الناقص في المقامات:

- (الدالّين) و (الضالين) [101]
- (حرف) و (طرف) [102]
- و (مُلِم) و (مُهِم) [103].

4. الطّباق: ويظهر بوضوح في مقامة (التسليم) [104]، ومن أمثلتِه فيها:

- (وما الدّهرُ إلاّ أمسٌ ويومٌ وغدْ، وما العيشُ إلا ضنكٌ ورغَدْ)
- (فذو اللبِّ مَن جعل لذّاتِه كأوصابِهْ، وسوّى بين حالَتَيْ عُرسِه ومُصابِهْ)
- (فإذا اعتَوَرَه النَّعيمُ والبوسْ، لم يُعْتَقَبْ عليه التَّهلّلُ والعبوسْ)

فالطباق ظاهر بشكلٍ جليّ بين الأمس واليوم والغد، والضنك والرّغد، واللذّات

والأوصاب، والعرس والمُصاب (المصيبة) ، والتهلّل والعبوس، والنعيم والبؤس.

5. التَّرْصيع: وهو «توازن الألفاظ، مع توافق الأعجاز أو تقاربها» [105].وقد أشار إليه الزمخشريّ في المقدمة، ومن أمثلته:

خصال	الخير	كتفاح	لبنان	كيفما	قلبتها	دعتك	إلى	نفسها
خصال	الشرّ	كحسك	السّعدان	أنّى	وجّهتها	نَهَتْك	عن	لمسها

المقابلةُ: وهي: « أنْ يُؤتى بمعنَيَيْن متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب» [106].ويمثلُهُ المثالُ السابق (الترصيع) خيرَ تمثيل.

مضامين المقامات:

تحملُ مقاماتُ الزمخشريّ أبعاداً متنوعة، دينيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة؛ أما البعد الدينيّ فهو جليّ لا يحتاجُ إلى توضيح، فمقامةُ المراشد [107] تدعو إلى فعل الخير، ومقامة الرضوان [108] تدعو إلى لزوم الطاعة، وترك المعصية، ومقامة الحذر [109] تُحذّرُ من عذاب جهنَّم، ومقامة التسليم [110] تدعو إلى التسليم لقضاء **الله** وقدره، ومقامةُ المنذرة [111] تتحدّثُ عن نعمة **الله** على الإنسان، وأنّ النقمةَ قد تكونُ نعمةً، وتدعو إلى الإقلاع عن المعاصي.وهذه المضامين مضامين دينيّة.

أمّا البعد الاجتماعيّ فيتمثلُ في مقامة المراشد [112] في تينكَ الطائفتين، الأولى: طائفة المتقين، وقد ختَمَ مقامته بمدحهم، وحضّ نفسه على السير في ركبهم.والثانية: طائفة الضالين الذينَ يتّبعون ما تفرَّقَ من السُّبل، ويتنكبونَ عن الصراط السَّويّ.أمّا في مقامة التسليم [113] فتظهرُ طائفتانِ أُخريان، طائفةُ المؤمن الصابر على مصيبته، المنتظر الجزاء من **الله**، والثانية: طائفة الفاسق الجازع الذي يجمعُ إلى مصيبته الدنيويّة مصيبة دينية تتمثلُ في تفويته ثوابَ الصبر على المصيبة.وتحفلُ مقدمةُ الكتاب [114] بذكر طائفة من الناس شبَّهَهُم بالخنازير لعدم انتفاعهم بالعلم، وجاءت خُطبةُ الكتاب[115]محذِّرةً من أولئكَ النَّفر الذين يتعلمون العلم لينالوا به عَرَضاً من الدّنيا.

ويظهرُ البعد السياسيّ جلياً في خطبة الكتاب[116] حينَ ينتقدُ مجتمعاتِ السلاطين، فيأخذ على نفسه عهداً بنوده ما يأتي:

1. أنْ لا يطرق أبواب السلاطين ولا أعوانهم.

2. ألا ينظم الشعر فيهم وألا يمدحهم.

3. أنْ يتنزّهَ عن أموالهم، ويُسقط اسمه من الديوان [117].

وقد عَدَّ أموال السلاطين سحتٌ لا يجوزُ أكلُهُ، وأن حياتهم حياة جاهليّة تقومُ على النهبِ والسلبِ، وفي هذا أشدُ النقدِ لهم، يقول: «وأنّ يعنّفَ نفسه حتى تقيءَ ما اسْتَطْعَمَتْ في ذلك فيما خلا لها من سَبْي جاهليَّتها» [118].

ومع هذا فيظلُ البعد الدينيّ هو السّائدَ، إذ يغطي على البعدين السياسيّ والاجتماعيّ، فلا نكادُ نتبيّنهما إلا بعد طولِ تمعُّن، وتأمُّل.

الخلاصةُ:

بعد هذا التطوافِ في مقامات الزمخشريّ نخلص إلى النتائج الآتية:

1. يختلفُ النسقُ البنيويّ لمقاماتِ الزمخشريّ عمّا عهدناه لدى بديعِ الزمان الهمذانيّ والحريريّ؛ فهي تكادُ تخلو من الفن القصصيّ، مما يجعلها تقتربُ من مفهومِ (المقام) و (المواعظ) أكثر من مفهوم المقامة الذي عهدناهُ عند بديعِ الزمان الهمذانيّ.

2. مرت مقاماتُ الحريريّ بشرحها بثلاثِ مراحل حتّى استوتْ على سوقها، وجاءت على هذه الهيئة التي بين أيدينا.

3. خصّص الزمخشريّ (المقدمة) للحديث عن شرح المقامات، وخصّ (الخطبة) للحديث عن المقامات نفسها.

4. الزمخشريّ معتزليّ بلا شك، ولكنّ نصوص المقامات لا تُسعفُنا في الاستدلالِ على اعتزاله بشكل صريحٍ.

5. تتجلّى الوحدتان العضويّة والموضوعيّة في المقامات بشكل واضح؛ إذ ترتبطُ المقامة بأختها ارتباطاً وثيقاً، ويرتبط العُنوان بالمضمون، والمُسْتَهَلُّ بالمتن والخاتمة بشكل وثيق في المقامة الواحدة.

6. تتسمُ المقامةُ بفصاحةِ الألفاظِ، وبلاغةِ المعاني، ويتناسبُ فيها اللفظُ مع المعنى بشكلٍ واضحٍ.

7. تحفل المقامات بالمحسّنات البديعيّة، دون أن يظهر فيها التّكلّف أو أثر الصّنعة. وقد جاء هذا الأثر منسجماً مع المنهج الذي اختطّه لنفسه، وأفصح عنه في المقدّمة.

8. تشتملُ المقاماتُ على أبعادٍ دينيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، ولكنْ يظلُّ البعد الدينيّ هو السّائد بحيثُ يغطي البعدين السياسيّ والاجتماعيّ، فلا نكادُ نتبيّنهما إلا بعد طولِ تمعن.

وأخيراً، نسألُ الله أنْ يكونُ البحثُ مفيداً، وأنْ ينفع به إنّهُ نعم المولى ونعم النصير. والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تتمّ الصالحات

الهوامش:

1. (تُنظَر ترجمته في: سِيَر أعلام النّبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422هـ/ 2001م، ج15، ص151 – 156) .والأنساب لعبد الكريم بن محمد بن منصور السّمعانيّ (توفي سنة 562هـ) ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، ط1، 1382هـ/ 1962م، ص–2497 2498 2498.
2. مقامات الزمخشريّ، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987، ص50.
3. نفسه، ص255.
4. نفسه، ص218.
5. نفسه، ص224.
6. نفسه، ص238.
7. نفسه، ص226.
8. نفسه، ص255.
9. نفسه، ص23.
10. نفسه، ص62.
11. نفسه، ص64 (في الحاشية) .
12. نفسه، ص7.
13. في هذا التصريح فائدة عظيمة فهو يزيدُنا ثقةً بنسبة الكتابِ إلى مؤلفه.
14. مقامات الزمخشري، ص10.
15. نفسه، ص7.
16. نفسه ص8.
17. نفسه، ص7.
18. تبرزُ آراء الزمخشريّ البلاغيّة بشكلٍ جليّ في مقامة (الفرقان) ص 187 – 193، فحين يتكلم على بعض مناحي إعجازِ القرآن الكريم يقول: " ونظرتُ في سلامةِ سَبْكِه المستغرَب، وسلاسةِ مائه المستعذب، ورصانة نظمِهِ المُرصَّف، ومتانةِ نسجه المفوَّف،

وغرابة كنايته، ومجازه وندرة إشباعه وإيجازه، وروعة إظهاره، وبهجة حذفه وتكراره، وإصابة تعريفه وتنكيره، وإفادة تقديمه وتأخيره...».

18. مقامات الزمخشري، ص8.

19. نفسه، ص8.

20. نفسه، ص7.

21. نفسه، ص9.

22. نفسه، ص –10 11.

23. نفسه، ص14 – 15.

24. نفسه، ص15.

25. نفسه، حاشية ص15.والأصل في معنى الاقتضاب (القطع) .(القاموس المحيط، ج1، ص122، دار الجيل، بيروت) .

26. نفسه، ص15.

27. نفسه، ص–10 11.

28. نفسه، ص50.

29. نفسه، ص50.

30. شرح الأشمونيّ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، 1357هـ، 1955م، ج1، ص224.

31. هكذا وردت في الأصل، والصواب (لا ينْتبْهُ) لأنها جواب الشّرط.

32. مقامات الزمخشريّ– دراسة تحليليّة، باي هونغ وي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، إشراف أ.د.عبد الجليل عبد المهدي، 1997.ص 102.

33. نفسه، ص 103.

34. نفسه، ص 101.

35. نفسه، ص16.

36. نفسه، ص128.

37. نفسه، ص78.

38. نفسه، ص140.وقد استدلّ بها باي هونغ وي، في رسالته ص103.

39. عمرو بن عبيد كبير المعتزلة في زمنه، توفي سنة 144هـ، ورثاه الخليفة أبو جعفر المنصور، محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ، سِيَر أعلام النّبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422هـ/ 2001م، ج6، ص106.

40. مقامات الزمخشري، ص 140.

41. نفسه، ص 16.

42. نفسه، ص23.

43. نفسه، ص42.

44. نفسه، ص50.

45. نفسه، ص62.

46. نفسه، ص16.

47. نفسه، ص23.

48. نفسه، ص42.

49. نفسه، ص50.

50. نفسه، ص62.

يظهرُ بشكلٍ جليّ ارتباط العناوين بمضمونها في جميع المقامات، حتّى مقامات النحو، والعروض، والقوافي، وأيام العرب، فهي وإنْ لم تتكلمْ على هذه العلوم من ناحيةٍ اصطلاحية، فقد استطاعتْ أن توظّف مصطلحات علم النحو، وعلمي العروض والقافية في خدمة المعاني الوعظيّة، وكذلك الحال في مقامة الديوان، إذ أفادَ من مصطلحات الديوان في الوعظ.وكذلك حين وظفَ الحوادث التاريخيّة ليستقي منها العبرة والعِظةَ في مقامة (أيام العرب) .

51. نفسه، ص16.

52. نفسه، ص19.

53. نفسه، ص23.

54. نفسه، ص23.

55. نفسه، ص42.

56. نفسه، ص50.

57. نفسه، ص 51.

58. نفسه، ص62.

59. نفسه، ص11.

60. نفسه، ص63.

61. نفسه، ص16.

62. نفسه، ص16.

63. نفسه، ص23.

64. نفسه، ص23.

65. نفسه، ص50.

66. نفسه، ص50.

67. نفسه، ص 42.

68. نفسه، ص62.

69. نفسه، ص16.

70. نفسه، ص23.

71. نفسه، ص50.

72. نفسه، ص62.

73. نفسه، ص63.

74. نفسه، ص42.

75. الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985م، ص5.

76. نفسه، ص7.

77. نفسه، ص10.

78. مقامات الزمخشريّ، ص17 – 18.

79. القَعَس: "خروج الصَّدْر، ودخول البطْن، وهو ضِدُّ الْحَدَب" يُنْظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط، ج2، ص251.

80. مقامات الزمخشريّ، ص14.

81. نفسه، ص14.وفي القاموس المحيط: «الشَّراشر: النَّفْس، والأثقالُ، والمَحبَّة، وجميع الجسد" الفيروزابادي: ج2، ص59.

82. جواهر البلاغة، أحمد الهاشميّ، ط1، مطبعة الإيمان، المنصورة، 1999، ص8.

83. مقامات الزمخشريّ، ص23.

84. نفسه، ص44.

85. نفسه، ص44.

86. نفسه، ص15.

87. نفسه، ص158.

88. نفسه، ص20.

89. نشرح ابن عقيل، ج1، ص301.

90. نفسه، ج1، ص302.

91. مقامات الزمخشريّ، ص180.

92. شرح ابن عقيل، القاضي بهاء الدين بن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، 1995م، ج1، ص390 الهامش.

93. جامع الدّروس العربيّة، الغلاييني، ط12، المكتبة العصرية، بيروت، 1973، ج1، ص108.وانظر: شرح الأشموني، ج2، ص657.

94. هو الباحث باي هةونغ واي في أطروحته للماجستير: مقامات الزمخشريّ دراسة تحليليّة، ص86.

95. مقامات الزمخشري، ص23.

96. نفسه، ص19.

97. نفسه، ص19.

98. نفسه، ص19 – 20، والثاني ص19.

99. جواهر البلاغة، ص318.

100. نفسه، ص321.

101. مقامات الزمخشريّ، ص19 – 20.
102. نفسه، ص43.
103. نفسه، ص42.
104. نفسه، ص50 – 54.
105. جواهر البلاغة، ص319.
106. نفسه، ص286.
107. نفسه، ص16.
108. نفسه، ص23.
109. نفسه، ص42.
110. نفسه، ص50.
111. نفسه، ص62.
112. نفسه، ص16.
113. نفسه، ص50.
114. نفسه، ص7.
115. نفسه، ص9.
116. نفسه، ص9.
117. نفسه، ص11.
118. مقامات الزمخشريّ، ص11.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الإيضاح في علوم البلاغة، القزوينيّ، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985م.
3. جامع الدّروس العربيّة، الغلاييني، ط12، المكتبة العصرية، بيروت، 1973م.
4. جواهر البلاغة، أحمد الهاشميّ، ط1، مطبعة الإيمان، المنصورة، 1999م.
5. سِيَر أعلام النّبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ، ، مؤسسة الرّسالة، بيروت، 1422هـ/ 2001م.
6. شرح ابن عقيل، القاضي بهاء الدين بن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، 1995م.
7. شرح الأشمونيّ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، 1357هـ، 1955م.
8. مقامات الزمخشريّ، الزمخشريّ، ط2، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1987م.
9. مقامات الزمخشريّ– دراسة تحليليّة، باي هونغ وي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، إشراف أ.د.عبد الجليل عبد المهدي، 1997م.